



سُورَةُ فَاطِمَةَ



سُورَةُ فَاطِرٍ

مكية وآياتها خمس وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّنقَىٰ
وَتَلَثَّ وَرَبِّعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا
يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ
بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ
خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآخِذْ
تَوْفِكُونَ ﴿٣﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
الْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغْرِبُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا
يَغْرِبُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا
حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زِينَ لَهُمْ سُوءُ
عَمَلِهِمْ فَراءَهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا نَذْهَبُ
نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

سورة تتسمى باسم من أسماء الله «الفاطر» فإنها كسائر السور من

«الفاطر» وهنا تبدأ بـ ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

ثم واسم لها آخر «سورة الملائكة» قضية البداية بها بعد الفاطر، فهي اسم لها بعد الفاطر، كما وأنهم بعد الفاطر.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْنَىٰ وَتِلْكَ رُوحٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١١﴾

هنا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مبرهنًا بالربوبية المطلقة رحمانية: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تعبيراً عن الكون كله، ورحيمية: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾... ونجد الرحمتين مع ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في خمسة أخرى بغير يسير في صيغة التعبير (١).

ولأن الفطر هو الشق، إذاً فالسماوات والأرض مشتقتان عن مادة مخلوقة قبلهما، المعبر عنها في هود بـ «الماء» وكما فصلت فيها وفي آيات من فصلت والأنبياء (٢).

﴿... جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾... وتذكر الملائكة بمختلف صيغها (٨٨) في القرآن كله، مما يدلنا على مدى أهميتهم في رسالاتهم الروحية وسواها في ميزان الله.

وقد وصفهم أمير المؤمنين وقائد الغر المحجلين عليه السلام بقوله: «خلقتهم وأسكنتهم سماواتك، ليس فيهم فترة، ولا عندهم غفلة، ولا فيهم معصية، اعلم خلقك بك، وأخوف خلقك منك، وأقرب خلقك إليك، وأعملهم بطاعتك، لا يغشيه نوم العيون، ولا سهو القلوب، ولا فترة الأبدان، لم

(١) ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤] ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠١] ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أِنِّي إِلَهُ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ...﴾ [إبراهيم: ١٠] ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِّمِ الْعَبِيدَ وَالشَّهَدَةَ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الرؤم: ٤٦] ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا...﴾ [الشورى: ١١].

(٢) الآيات ٩ - ١٢ من فصلت و٢٩ من الأنبياء.

يسكنوا الأصلاب، ولم تتضمنهم الأرحام، ولم تخلقهم من ماء مهين، أنشأتهم إنشاءً فأسكنتهم سماواتك، وأكرمتهم بجوارك، وائتمنتهم على وحيك، وجنبتهم الآفات، ووقيتهم البليات، وطهرتهم من الذنوب، ولولا قوتك لم يقووا، ولولا تثبيتك لم يثبتوا، ولولا رحمتك لم يطيعوا، ولولا أنت لم يكونوا.

أما إنهم على مكاناتهم منك، وطاعتهم إياك، ومنزلتهم عندك، وقلة غفلتهم عن أمرك، لو عاينوا ما خفي عنهم لاحتقروا أعمالهم، ولأزرأوا على أنفسهم، ولعلموا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك، سبحانه خالقاً ومعبوداً ما أحسن بلائك عند خلقك! (١).

وهنا «لو عاينوا» إحالة لمعاينتهم هذه، وتلميحة أنه ﷺ عاين ما لن يعاينوه، وعلم ما لم يعلموه!.

﴿جَاعِلٍ﴾ بالنسبة للملائكة بعد «فاطر» لسائر الكون، تغاضٍ عن لمحجة لخلقهم كيف هو ومم هو؟ وإنما جعل الرسالة الملائكية، وقد يلوح لأنهم إنما أنشئوا إنشاءً من المادة الأم أماهيه، دون تطور بتطوير، وكما أشار إليه الإمام ﷺ: ثم ﴿أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ﴾... بيان لكيف هم بعد خلقهم؟ أن لهم أجنحة هي على الأكثر ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَّةَ وُزْبَعٍ﴾ وقد يقل فيهم ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ خلقاً لأجنحة لهم زائدة على ﴿وُزْبَعٍ﴾ أم لسائر الخلق، وكما ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (٢): نظرية التوسعة.

فلا وقفة في أصل الخلق وطوره وكوره، مشيئة مطلقة واسعة شاسعة، في أصل الخلق وفرعه!.. ولأن ﴿الْمَلَكِيَّةَ﴾ جمع محلى باللام، مما يفيد استغراق العام، فهم - إذاً - كلهم دونما استثناء، من ملائكة الوحي إلى

(١) تفسير البرهان عن القمي وقال أمير المؤمنين (٣): (٣٥٧).

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

النبيين، والعمال في سائر التكوين، من رسل الإمامة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ﴾^(١) والكرام الكاتبين والمصورين في الأرحام والمهلكين: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾^(٢) وسائر عمال رب العالمين.

والأجنحة جمع الجناح آلة الطيران أيًا كان، ريشاً وسواه كأجنحة الطائرات فلا تختص بريش وزغب، بل هي كما تناسب كيانه، إن نورانيين أماهيه فأجنحة نورانية أماهيه؟.

وعلى أية حال فهم - على كونهم ملائكة - صنوف في أجنحتهم ووظائفهم ودرجاتهم وكما يقول سيد الساجدين وزين العابدين^(٣): ولا نجد

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦١.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٣١.

(٣) في الصحيفة السجادية وكان من دعائه على حملة العرش وكل ملك مقرب: اللهم وحمة عرشك الذين لا يفترون من تسيحك، ولا يسأمون من تقديسك، ولا يستحسرون عن عبادتك، ولا يؤثرون التقصير على الجد في أمرك، ولا يغفلون عن الوله إليك، وإسرافيل صاحب الصور الشاخص، الذي ينتظر منك الإذن وحلول الأمر، فينبه بالنفخة صرعى رهائن القبور، وميكائيل ذو الجاه عندك والمكان الرفيع من طاعتك، وجبريل الأمين على وحيك، المطاع في سماواتك، المكين لديك، المقرب عندك، والروح الذي هو على ملائكة الحجب والروح الذي هو من أمرك - اللهم فصل عليهم وعلى الملائكة الذين من دونهم من سكان سماواتك، واهل الامانة على رسالاتك، والذين لا يدخلهم سامة من دؤوب، ولا إعياء من لغوب ولا فتور، ولا تشغلهم عن تسيحك الشهوات، ولا يقطعهم عن تعظيمك سهو الغفلات، الخشع الأبصار فلا يرومون النظر إليك، النواكس الأذقان الذين قد طالت رغبتهم فيما لديك. المستهترون بذكر آلائك، والمتواضعون دون عظمتك وجلال كبرياتك، والذين يقولون إذا نظروا إلى جهنم تزفر على أهل معصيتك: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك! - فصل عليهم وعلى الروحانيين من ملائكتك، وأهل الزلفة عندك، وحمال الغيب إلى رسلك، والمؤمنين على وحيك، وقبائل الملائكة الذين اختصصتهم لنفسك، وأغنيتهم عن الطعام والشراب بتقديسك، وأسكنتهم بطون سماواتك، والذين هم على أرجائها إذ أنزل الأمر بتمام وعدك - وخزان المطر وزواجر السحاب، والذي بصوت زجرة يسمع زجل الرعود، وإذا سبحت به حفيقة السحاب التمعت صواعق البروق، ومشيعي الثلج والبرد، =

في القرآن مذكوراً باسمه إلا جبريل وميكال أم والروح إن كان من الملائكة، اللهم إلا بشغله كالكرام الكاتبين: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾^(١) مقاماً في كيانه ومقاماً في عمله.

ومهما يكن من شيء في كونهم فليسوا إلا انبثاقاً لطيفاً من المادة الأم كسائر المواد، مهما كانوا من أطفها، كما تدل على ذلك آيات خلق الكون ككل.

ومهما يكن من أمرهم، فهم بأجنتهم عمال أمر الله، دون استقلال لهم بجنب الله، أو استغلال من أمر الله، بل هم أداة لتحقيق أمر الله، لا حاجة له إليها، بل لأن الكون مسرح الأسباب، وهو تعالى مسبب الأسباب.

إنهم - بأمر الله - يجمعون كافة الخطوط بخيوطها في نظم بارع ونضد رائع، في قبضها وبسطها، وشدها وإرخائها، اللهم إلا ما لكائن فيه اختيار، ولكنه - أياً كان - ليس اختيار تفويض كما لا إيجابار.

﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢)

إن الله تعالى - بملائكته العمال - هو الفاتح لرحمة، وهو الممسك لها

= والهابطين مع قطر المطر إذا نزل، والقوام على خزائن الرياح، والموكلين بالجبال فلا تزول، والذين عرفتهم مثاقيل المياه، وكيل ما يحويه لواعج الأمطار وعوالجها، ورسلك من الملائكة إلى أهل الأرض بمكروه من ينزل من البلاء، ومحجوب الرخاء - والسفرة الكرام البررة، والحفظة الكرام الكاتبين، وملك الموت وأعوانه، ومنكر ونكير، ومبشر وبشير، ورؤمان فتان القبور، والطائفين بالبيت المعمور، ومالك والخزنة، ورضوان وسدنة الجنان، والذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والذين يقولون: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، والزبانية الذين إذا قيل لهم: خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه - ابتدروا سراعاً ولم ينظروه، ومن ألهمنا ذكره ولم نعلم مكانه منك، وبأي أمر وكلته، وسكان الهواء والأرض والماء، ومن منهم على الخلق - فصل عليهم يوم تأتي كل نفس معها سائق وشهيد، وصل عليهم صلاة تزيدهم كرامة على كرامتهم وطهارة على طهارتهم . . .

(١) سورة الصافات، الآية: ١٦٤.

لا سواه، فلا تجعلوا لله الأبدال الأمثال! وليست خزائن رحمته إلا ملكه في ملكه: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾^(١) ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾^(٢) إذا فلا فاتح لها إلا هو، ولا ممسك لها بعد فتحها أم قبله إلا هو!

و﴿مِنْ رَحْمَةٍ﴾ تستغرق كل رحمة مادية وروحية، تدفقاً على من يشاء، أو إغاظة عمن يشاء، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في فتحها وإمسакها، إذ لا ممسك لها ولا مرسل ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ إرسالاً وإمساكاً ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيهما، فتحاً بحكمة وإمساكاً بحكمة دونما فوضى جزاف!

هنالك تنقطع عن شبهة كل حول وكل قوة إلا بالله، حيث تغلق كل الأبواب إلا باب الله، فلا تدق من الأبواب إلا باب الله.

فكل نعمة يمسكها الله تنقلب نقمة، وكل نقمة تحفها رحمة الله تنقلب نعمة، فقد تنام على شوك برحمة الله فإذا هو مهاد، أو تنام على حرير وقد أمسكت عنك رحمته فإذا هو شوك القتاد!

تري يوسف في غياهب السجن هو في رحمة الله حيث يبتعد هناك عن سخط الله: ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾^(٣) وهناك العزيز وامراته في نعمة البلاط وهما في نقمة الله، وكما ظهرت لهما بعد ربح من الزمن. هنالك رحمت وألطف خفية إلهية لا يدركها إلا أهلوها، خليطة بأشواك، ظاهرة بمظهر الهلاك، ولكنها باطنها فيها الرحمة وظاهرها من قبلها العذاب!

ليست هنالك - وفي دار المحنة وتناسل الذرية - رحمة خالصة دون

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٠.

(٢) سورة ص، الآية: ٩.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٣٣.

تعب وشغب، فحين تعيش مع الله، راضياً بمرضاة الله، ملتزماً طاعة الله، فلا عليك أن يضيق سائر الرزق، وتخشن سائر الحياة، ويشوك المضجع، فإنه حياة الرحمة والراحة، حيث تعيش أصل الرحمة.

وحين يُعكس الأمر حيث تفقد الزلفى إلى الله، فكل رحمة سواه نقمة وزحمة، إذ ليست فيها طمأنينة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(١)!

من الخليقة من يعيش الرحمتين: ظاهرة وباطنة، ومنهم من يُحرمهما فواويلاه! ومنهم من يعيش الروحية ويحرم الظاهرية، ومنهم عكسها، وقد يفضل الثالثة على الأولى حيث الأجر على قدر المشقة ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٢) وكما نرى السابقين الأقربين من عباد الله محرومين - في الأكثر - عن النعم الظاهرية، وقليلٌ من هم، المجموعة لهم ظاهرها إلى باطنها ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾!

وإذ لا رحمة إلا من الله فتحاً وإمساكاً، فمن ذا نرجو إلا الله؟ ومن ذا نخاف إلا الله، «ومن خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء»!

ثم ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ كما ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ تعني من دون الله، وحين أن الرحمتين كلها هي من الله وإرسالاً وإمساكاً، فبأحرى أن تكون رحمة الهداية بشرعة سواها، منحصرة في الله، منحصرة عن سوى الله! فما يفتح من هدى فلا ممسك لها إلا هو، وما يمسك فلا مرسل له إلا هو، وقد أرسل رحمة الشرعة الأخيرة دون إمساك فهي باقية حتى القيامة الكبرى ويا لها من آية وحيدة ترسم للحياة صورة جديدة يسيرة مديدة، لو استقرت في

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٢) سورة النجم، الآية: ٥٣.

قلب الإنسان لصمد للأحداث كالطود الوطيد وتضاءلت أمامه الأشخاص
حيث تبيد، اللهم إلا من يهدوننا إلى الله زلفى بإذنه ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾!

وهكذا تصنع آية من القرآن العظيم من يتعاملون مع الحقيقة التي يمثلها،
دون إخلاد إلى جمال الألفاظ - فقط - أم كمال المعاني فحسب، طالما
يتذرعون هذه وتلك إلى تمثيل القرآن في واقع الحياة بكل جمال وكمال!

وهذه الآية - ومعها سائر القرآن - هي بنفسها تكفي رحمة لا تبقي على
رحمة حيث تسكب في القلب رحيقها بحقيقتها المجردة، فها هي نموذج من
رحمة الله لا ممسك لها، إلا عمن اتخذوا هذا القرآن مهجوراً، إذأ فهو فيهم
وليس فيهم، يموتون عطاشاً وهم يعيشون شاطئ بحره، وخضم قعره،
و«رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه»! ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ويا ليتنا نذكر نعمة الله المتواصلة، ورحمته المتأصلة غير المتعاضلة
دون غفوة عنها ولا غفلة بوضمة عين ونبضة قلب:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾ (٣):

﴿النَّاسُ﴾ هنا كل الناس من ناس ونسناس حسب مختلف الدرجات
والدرجات ﴿أَذْكَرُوا﴾ لا بلفظة لسان، بل بالأعمال والجنان ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾
ومنها أنه منحنا بخطابه الكريم، وقرآنه العظيم، وفطرننا على توحيده، ورزقنا
من آيات آفاقية وأنفسية رخيّة ندية، نتذكر بها نعمة الله: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ
اللَّهِ﴾؟ فإن معرفة الخالق بالوحدانية أعظم نعمات الله ورحماته!

ف﴿هَلْ﴾ سؤال من قرارات النفوس: عن فطرة ساذجة وعقلية ناضجة
غير مازجة ولا مازجة، فهنا الجواب: كلا يا الله!

﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ و﴿مِنْ﴾ هنا لها موقعها المكين، والقول إنها